



## مجلة دراسات تاريخية

NISSN: 9741-2352

EISS :6723-2600



دور رحلات "جون لويس بوركهارت" (1784-1818م) في الكتابات التاريخية

*The role of the travels of "John Louis Burckhardt" (1784-1818)  
in historical writings*

نواصر عبد الرحمان

جامعة تمنغست (الجزائر)

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور

[nouacerabd@gmail.com](mailto:nouacerabd@gmail.com)

## الملخص:

تمثل نصوص الرحلة مصدر من مصادر الكتابات التاريخية، كونها تعكس صورة من صور لأحداث عاشها فرد أو مجموعة أفراد في رقعة جغرافية ومجال زمني محدد، وتختلف هذه النصوص على حسب الشخص الذي أوردتها من حيث نوعية النشاط الذي يمارسه مثل التجارة أو طلب العلم أو أداء مناسك، أو قائد عسكري أو جاسوس....، ومن بين هذه الرحلات نجد الرحلات التي نظمت من أجل استكشاف القارة الإفريقية، خاصة المناطق الداخلية، والتي ظلت حتى بدايات القرن 19م مجهولة، وشكلت مجاري الأنهار الإفريقية إحدى النقاط التي استقطبت اهتمامات الدول الأوروبية وذلك بحثاً عن مصادر جديدة للثروة ومناطق للأسواق لتصريف الفائض الإنتاجي، ومن بين الرحلات التي سندرسها هي رحلات "جون لويس بوركهارت" التي كان هدفها استكشاف منبع ومصب نهر النيجر، ولكن وجد نفسها في مناطق أخرى مثل صحراء النوبة وبلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية التي اتخذ منها مركزاً لتدريباته حتى ينجح في مهمة تنكره، رغم أنه لم يتمكن من انجاز الهدف الرئيسي له، لكنه نجح بشكل كبير في نقل معلومات جمة عن المناطق التي عاش بها أو زارها وذلك لدقة المعلومات التي تحصل عليها كونه يتمتع بقوة الملاحظة وحرصه الشديد للوصول إلى المعلومة، فماهي الأحداث التي رصدتها رحلات بوركهارت والتي أصبحت مادة تاريخية للباحثين، و ماهي الأمور التي أقفلت عنها، وإلى أي مدى كان بروكهارت يتحلى بالموضوعية؟

الكلمات الدالة: الرحلة، بوركهارت، إفريقيا، نهر النيجر، صحراء النوبة، النصوص التاريخية.

## Abstract

The texts of the trip represent a source of historical writings, as they reflect a picture of events experienced by an individual or group of individuals in a specific geographical area and time range. Or a military leader or a spy..., and among these trips we find trips organized to explore the African continent, especially the interior regions, which until the beginning of the 19th century remained unknown, and the courses of African rivers formed one of the points that attracted the interests of European countries in search of sources. Among the trips that we will study are the trips of "John Louis Burckhardt" whose goal was to explore the source and mouth of the Niger River, but found itself in other areas such as the Nuba desert, the Levant, and the Arabian Peninsula, from which he made a center for his training until He succeeds in a mission that he denies, although he was unable to accomplish his main goal, but he succeeded greatly in transmitting a great deal of information about the areas in which he lived or visited, due to the accuracy of the information he obtains as he enjoys the strength of observation and his keen interest. To access the information, what are the events monitored by Burckhardt's travels, which have become historical material for researchers, and what are the matters that have been closed, and to what extent was Burckhardt's objectivity?

Keywords: Burckhardt, Africa, the Niger River, the Nuba desert, historical texts.

## مقدمة:

لقد تأخر كشف المناطق الداخلية من إفريقيا إلى بدايات القرن 19م بالنسبة للعالم الأوربي لعدة أسباب منها: قصر سواحلها بالنسبة لمساحتها، أي كلما زاد طول الساحل زادت فرصة التغلغل نحو الداخل، وحتى المناطق التي تأتي بعدها فقيرة صحراوية أو شبه صحراوية أو تؤدي إلى غابات يصعب اختراقها، وقلة الخلجان والرؤوس مما جعل أمر توفر موانئ طبيعية قليل مما صعب على الأجانب مهمة التوغل نحو الداخل، وحتى الساحل الشرقي الذي يتوفر على بعض الموانئ الطبيعية وتوجد بقربه جزر مثل زنجبار وبمبا لكنها بعيدة عن أوربا وكذلك كان يسيطر على ملاحتها ويقف أمام السفن الأوروبية المماليك في كل من مصر والحجاز. قلة الجزر القريبة من الساحل والتي تساعد على اتخاذها كقواعد خلفية ينطلق منها المستكشفون نحو الداخل وحتى إن وجدت فهي بعيدة عن الساحل وبالتالي لا يمكن اتخاذها كقاعدة نحو الداخل مثل جزر كناريا، والملاحظ لطبيعة جريان أنهار إفريقيا يلاحظ صعوبة استخدامها كوسيلة نقل للمناطق الداخلية، إذ تكثر بها المستنقعات والمساقط المائية مثل (نهر الكونغو، النيجر، الزمبيزي). ومن بين هذه الرحلات رحلة "جون لويس بوركهارت" ففيمما تمثلت مظاهر الاستفادة التاريخية من رحلاته؟

## 1. التعريف بجون لويس بوركهات ورحلاته:

الرحالة "بوركهارت" من موليد مدينة لوزان سنة 1784 م هاجر مع عائلته من لوزان نحو إنجلترا بسبب تعرض أبيه لتهام خطير كاد أن يعص بحياته حيث اهتمته قيادة الثورة الفرنسية بالخيانة والعمالة لصالح النماسويين، ورغم تبرئته من طرف القضاء الفرنسي، إلا أنه لم يتق في نظام الحكم الجديد في فرنسا فاختر الهجرة إلى إنجلترا، وهي البلد التي سيستقر فيها "جون لويس بوركهارت" ويصلها سنة 1806 ويتعرف على أعضاء الجمعية الإفريقية التي فاز بثقتها وتزكيتها له، مما جعلها توافق على طلبه للقيام برحلة لاستكشاف منابع نهر النيجر خاصة أن مجيئه كان بعدما وصلت الجمعية الإفريقية إلى مرحلة يائسة بعدما خسرت جلّ المستكشفين الذين أوفدتهم للقيام بهذه المهمة.

قام بوركهارت بسلسلة من الرحلات الاستكشافية إلى صحراء النوبة حتى منطقة "دنقلة" التي اتخذوا منها مفر لهم من بطش جنود محمد علي باشا، واستقرّ بسوريا سوريا لفترة حتى يتعلم اللغة العربية جيدا، وزار الأردن وشبه الجزيرة العربية، قام بجمع ملاحظات مفصلة عن الطبيعة وثقافة السكان المحليين، في الماضي والحاضر. كان أول أوربي يعيد اكتشاف بقايا مدينة البتراء النبطية القديمة عام 1812، ومن المناطق المهمة التي زارها زيارته لمكة المكرمة 1815.<sup>1</sup>

يعدّ "بوركهات" من الشخصيات البارزة التي كان لها كبير الأثر في مجال أدب الرحلة، خاصة أنّ رحلاته جاءت في فترة حاجة الدول الأوروبية الماسة للمعلومات التي كانت تجهلها عن القارة الإفريقية بصفة عامة، والمناطق الداخلية بصفة خاصة، وإن كان بوركهارت لم يستطع القيام بالرحلة التي تم برمجتها

لاستكشاف نهر النيجر من حيث منبعه ومصبه كونه أصيب بمرض أودى بحياته وذلك في الفترة التي كان يتدرب فيها لخوض غمار هذه الرحلة..، حيث أرسل إلى بلاد الشام ليتعلم اللغة العربية وعادات وتقاليد المسلمين حتى يسهل عليه التنكر في زي مسلم ، كون الجمعية الإفريقية كان هدفها الوصول لداخل القارة الإفريقية من الشمال نحو الجنوب وليس من الغرب نحو الشرق<sup>2</sup>.

وهذا يتطلب تدريبات خاصة حتى يتمكن من انجاز المهمة الملقاة على عاتقه.

## 2- الظروف المحيطة برحلاته:

حدثت هذه الرحلات في ظروف جد صعبة وذلك لما كان يحدث على مستوى القارة الإفريقية، وعلى مستوى البحر المتوسط وعلى مستوى شبه الجزيرة العربية ومن هذه الظروف نذكر:

-الخسائر التي منيت بها الجمعية الإفريقية من خلال هلاك العديد ممن أوفدتهم للقيام باستكشاف نهر النيجر، ومن أبرزهم "أربعة رؤاد هلك منهم ثلاثة، ثم أرسلت الخامس وهو "منغو بارك" الذي وصل بالفعل إلى نهر النيجر الذي قدم عنه وصفا لكنه لم يحدد مصبه ولا منبعه، ولما عاد مرة ثانية على حساب الحكومة ليصل إلى مصبه حيث توفي في بومبا سنة 1806م<sup>3</sup>.

-لم تكن صحراء النوبة من الأهداف الرئيسة في رحلته ولا حتى شبه الجزيرة العربية، وإنما الظروف المحيطة بقضية التدريبات قصد تعلمه اللغة العربية هي التي جعلت منه يقوم بهذه الرحلات الخاطفة والتي أصبحت في آخر المطاف هي جوهر رحلاته وقدمت صور واضحة عن تلك المجتمعات التي زارها في تلك الفترة، بل أكثر من ذلك كانت من أدق المعلومات التي كونها كانت في صور تقارير ترسل إلى الجمعية الإفريقية.

- شكّ أهل النوبة أنه من جواسيس "محمد علي باشا الكبير"<sup>4</sup> كون رحلته تزامنت مع المذبحة التي نفذها محمد علي ضد المماليك والتي عرفت بـ"مذبحة القلعة"<sup>5</sup> يوم 1 مارس سنة 1811 وراح ضحيتها 1200 مملوك بما فيهم "شاهين بيك"، ولم ينجو منها سوى مملوك واحد "أمين بيك". والأمر الذي جنب "بوركهارت" بطش السكان هو وجد خطابات كان يحملها معه من حاكم "إسنا"، والمعروف أنّ ممالك الصعيد اعتذروا عن حضور الحفل، ورغم ذلك ستلاحقهم قوات محمد علي في منطقة النوبة حتى منطقة "دنقلة"، وسيتعرض الكثير من المماليك لمذبحة ثانية وهي مذبحة "إسنا" والتي دلت على الوضع الذي آل إليه المماليك وعدم استقرار رأيهم على أمر واحد، حيث استدرجهم ابن محمد علي وهو "إبراهيم باشا"<sup>6</sup> مستغلا الظروف التي كانوا يعيشونها، وأمنهم على حياتهم ووعدهم بالمناصب ولكن كانت النهاية 400 مملوك لقي حتفه، ومعهم 200 من العبيد السود<sup>7</sup>.

-عدم استقرار شبه الجزيرة العربية وذلك لوجود الحركة الوهابية<sup>8</sup>، و تكليف الدولة العثمانية محمد علي باشا بوضع حدّ لها.

### 3. اهتمام الدول الأوروبية بالقارة الإفريقية:

ونظرا للاهتمام الكبير الذي أولاه الأوروبيون للشرق ومنتجاته جعلت من الأوروبيين يتخذون من إفريقيا محطات من سواحلها للتزود والاستراحة وتجميع السلع ثم يكملون طريقهم. لذلك ستبدأ الحركة الكشفية في إفريقيا في العصر الحديث بأربعة مراحل: بالمرحلة الجزرية والساحلية واشتهر بها البرتغاليون ثم مرحلة الكشف الجغرافي والتي أسهمت فيها كثيرا الجمعيات الجغرافية والتي تبدأ برحلة "بروس" 1869م وتنتهي برحلة لفنغستون 1873م. ثم مرحلة الكشف السياسي والتي أدت إلى تصادم الدول الأوروبية في بسط النفوذ وتبدأ برحلة "ستانلي إلى نهر الكونغو 1874م. وتنتهي المرحلة بتقسيم القارة إلى مناطق نفوذ بين الدول الأوروبية الكبرى، وبعدها مرحلة الكشف العلمي التي تلخص جهود العلماء في دراسة المناطق التي خضعت لدولهم على حسب الاتفاق المعمول به من قبل الدول الاستعمارية<sup>9</sup>.

### 4. الرواد الذين قاموا بكشف القارة الإفريقية:

من بين لشخصيات المهمة التي تولت حركة الكشوفات "هنري الملاح" الذي شارك في الحملة التي أرسلها أبوه "جون الأول" للسيطرة على سبتة التي اتخذ منها المسلمون مركزا جهاديا ضد الهجومات الإسبانية والبرتغالية، وأقام البرتغاليون بإقامة أكاديمية بحرية تهتم بدراسة الأمور المتعلقة بالبحار ووضع خرائط وجمع المعلومات، وهي التي سيستفيد منها كل من: "بارتيلمودياز"، "فاسكوداجاما"، ومن المناطق التي اكتشفها البرتغاليون من إفريقيا مثل: جزر ماديرا، وجزر أزور، واكتشفوا مصب نهر السنغال والرأس الأخضر، ووصلوا إلى غانا فشرعوا في تجارة العبيد.

وسنة 1455-1457 تعمقت معلومات البرتغاليون عن المناطق الداخلية لإفريقيا بسبب المعلومات التي قدمها "كاداموستو" (Cadamost)، الذي كان يعمل تحت إمرة هنري الملاح وقدم معلومات قيمة عن مملكة مالي وازدهارها والمناطق الداخلية المجاورة لها، وعن التجارة القائمة بين المغاربة والإفريقيين، لذلك ركزوا على إيجاد تحالف بينهم وبين مملكة مالي لمنع أي تحالف قد يحدث بين العثمانيين في شمال إفريقيا وبين السلطنات الإسلامية في غرب إفريقيا، وعند انتصار مملكة سنغاي على مملكة مالي 1464-1494م، بادر البرتغاليون لعقد تحالف مع مملكة سنغاي والتي منحهم امتيازات تمثلت في إقامة مراكز تجارية على ساحل غرب إفريقيا وحتى على مستوى بعض المناطق الداخلية.

استؤنفت الكشوف الجغرافية بعدما تعطلت عدة سنوات سنة 1487 بقيادة "بارتيلمودياز" الذي كان أول من عبر رأس العواصف الذي سيسميه البرتغاليون "رأس الرجاء الصالح"، وبسبب تمرد بحارته عاد إلى البرتغال سنة 1488م.

نظم "فاسكو دي جاما" سنة 1497م رحلة من لشبونة إلى الساحل الشرقي من إفريقيا وبالضبط "ماليندي"، ولكي يصل إلى السواحل الهندية طلب من حاكم ماليندي- الذي سيحظى بتأييد كبير من البرتغاليين ضد شيخ سلطنة "ممبسة" (مدينة الحرب بفعل ما ذاقته من ويلات الحروب ضدها)- مرشدا يوصله إلى الهند فأمدّه بالبحار "أحمد بن ماجد"، وبالتالي أكمل البرتغاليون اكتشاف الطريق التجاري الاستراتيجي المؤدي إلى هذه المناطق وأقامو مركزا في مدينة "كاليكوت" سنة 1498م، وبالتالي أصبح البرتغاليون يتاجرون دون استخدام طريق التجارة الشرقية القديم الذي يسيطر عليه الوسيط المتمثل في دولة المماليك بمصر مما شكل ضربة كبيرة لأهم مصدر دخل لاقتصادهم.

عرفت جنوب إفريقيا مركزا تجاريا أو منطقة عبور السفن الأوروبية نحو أقصى الشرق بعل استقرار الهولنديين فيه الذين أسسوا شركة الهند الشرقية الهولندية وبنّت حصون لتأمين نشاطها وممتلكاتها في المنطقة، لكن في منتصف القرن 18م تدهورت أوضاعها المالية بسبب المنافسة التي تعرضت لها من قبل الإنجليز والفرنسيون، وبعد أن منح ملك هولندا بريطانيا حق احتلال جنوب إفريقيا ثمّ بيعها لها بستة ملايين من الجنيهات فعرفت هجرة كبيرة من طرف البريطانيين.

#### 5. كشف مسارات الأنهار الإفريقية من طرف الأوبيين:

تمثلت هذه الحركة في كشف وتتبع مجرى الأنهار التالية: (نهر النيل، ونهر الزمبيزي، ونهر الكونغو):

##### أ-نهر النيل:

ساهم الكثير من الأوروبيين في كشف منابع النيل منهم "جيمس بروس (Buce)" الأسكتلندي الذي وصل حتى إكسيوم عاصمة أثيوبيا القديمة، وحضي بمكانة مرموقة لدى ملكها معالجته له لمعرفته بأمور الطب فمنحه حرية التجوال في مملكته وساعده ذلك في استكشاف النيل الأزرق سنة 1770م، وقد نشر رحلاته في سبع مجلدات بعنوان: رحلات لاكتشاف منبع النيل: (Travels to Discover the Source of the Nile)، وكان يظن بأن منابع النيل تكمن فقط في منابع الحبشة، وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى تمّ تبت المصادر الأساسيين للنيل المتمثلين في المصدر الحبشي والمصدر الاستوائي. ثمّ جاء بعده "البكباشي سليم قبطان" الذي أرسله محمد علي الكبير لكشف منابع النيل حين مدّ نفوذه على السودان سنة 1821م. وأثبتت بأن ما أشيع على أن للنيل منبع واحد من الحبشة غير صحيح وبالتالي فتحت باب الكشف عن منابع النيل الاستوائية مثل ما قاما به الضابطان البريطانيان "بروتن وسبيك" 1856 خاصة سبيك الذي وصل إلى بحيرة فكتوريا التي أطلق عليها هو هذا الاسم. واستمرت الرحلات الأوروبية الأخرى حتى تم كشف منابع النيل الحقيقية.

##### ب-نهر الزمبيزي:

من أهم المستكشفين لنهر زمبيزي هو "دافيد ليفينجستون" (Livingstone, David) الأسكتلندي، والذي قام بعدة رحلات في نهر زامبيزي من سنة 1841 إلى 1856م وهو يقوم برحلة من مدينة الرأس بجنوب إفريقيا ثم نحو الداخل حتى نهر "لمبوبو" وعبر صحراء كلهاري، وفي سنة 1849 اكتشف بحيرة نجامي جنوب غرب نهر زامبيزي وتتبع مجرى زمبيزي حتى المصب ووجد المساقط المائية التي سماها "شلالات فكتوريا، والمدينة القريبة منها سماها "لفينغستون"، ودون ذلك في كتاب: (Misssnary Travels and researches in south Afrika) ونشير هنا بأن دفيد ليفينغستون أصبح من أكبر المعارضين لتجارة الرقيق.

### ج-نهر النيجر:

يعدّ ثالث نهر بعد نهر النيل والكونغو ينتشر على غرب القارة في شكل قوس يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، ثم يمتد من الجنوب الشرقي ليلتقي بنهر "بنوي"، نشير هنا إلى التضارب الكبير في المعلومات بين الرحالة حول هذا النهر، والخلط بينه وبين نهر السنغال الذي يصب في المحيط الأطلسي مثل ما حدث للرحالة "حسن الوزان" في القرن 16م، وفي القرن 18 نظمت عدة رحلات استكشافية لنهر النيجر، وأشهرها رحلة مانجوبارك الأسكتلندي سنة 1796م، وتتبع مجرى نهر النيجر ونهر السنغال ونهر غمبيا وعرف بأنها ليست متصلة فيما بينها، وكتب كتابه: (Park Mungo : Travels in the Interiors Districts of Afrika 1799)، وهناك رحلات أخرى قام بها كل من "كلابرتون" الأسكتلندي سنة 1822م من فزان نحو قبائل الهوسا ووصل إلى (كانو)، وأكمل الرحالة "لاندر" (Lander) استكشاف نهر النيجر حتى مصبه في خليج غانا.

### د-نهر الكونغو:

يعدّ آخر الأنهار التي تم اكتشاف منابعها ويعدّ هذا الاكتشاف الأخطر في تاريخ إفريقيا الحديث كون زاد من حدة التنافس الاستعماري على القارة الإفريقية وعقد مؤتمر برلين 1884/1885م، ويرتبط هذا الاكتشاف بالرحالة "ستانلي" (Stanley) الأيرلندي الذي كان له دور كبير في تأكيد الكثير من المعلومات عن بحيرة فكتوريا وبحية تانجانيقا، واكتشاف منابع نهر الكونغو وساعده في ذلك (حميد بن محمد المرجبي) المعروف عند الغربيين (Tippo Tip)، ونشر ستانلي هذه المعلومات في مجلدين أسالت لعاب الدول الأوروبية (بريطانيا-بلجيكا-فرنسا وألمانيا) لما حملته من معلومات قيمة عن الثروات التي تتوفر عليها منطقة حوض نهر الكونغو مما أذى في الأخير إلى عقد مؤتمر برلين لوضع قواعد وقوانين تلتزم بها الدول الأوروبية في نشاطها الاستعماري في إفريقيا.

### 6. مقارنة نصوص الرحلتين :

كان الأسكاي الحاج محمد من كبار قيادي سني علي واستطاع بدهائه أن ينتزع السلطة من "ابو بكر داعو" بعد هزيمته في مدينة "دنج" ولما بلغ الخبر بنات "سني علي" قلن: >> "أسكاي" معناها حسب السعدي لا يكون إياه، فلما سمع الأسكاي محمد ذلك لقب نفسه بهذا اللقب.<<

-تعدّ هذه الرحلة من أهم رحلات الحجّ التي عرفها السودان الغربي.. كونها تخصّ حاكم يمثل بداية مرحلة انتقالية في مسيرة حكام مملكة سنغاي، أي فاصل بين نهاية عهد حكم أسرة "سني" وبداية عهد حكم أسر "الأسكاي" وبالتالي تعدّ الرحلة الأولى لركب حجّ أسرة الأسكاي، والثانية من حيث البصمة التي تركتها على المستوى المحلي والخارجي لمملكة سنغاي بعد رحلة حجّ السلطان "منس موسى سنة 1324م.

-أنت هذه الرحلة بعدما قام "الأسكاي محمد" بتوطيد دعائم حكمه في جميع المجالات، وبالتالي كانت تتويجا لأهم أعماله في مملكة سنغاي حيث يقول محمود كعت: >> وهذا كله في أول أمره لتأليف قلوب قومه، فلما تبنت له السلطة واستقامت المملكة، خرج من ذلك كله، وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلّم....>>.

ويقول السّعيدي في كتابه تاريخ السودان: >> ففرج الله تعالى به -يقصد به الأسكاي محمد- عن المسلمين الكروب وأزال عنهم البلاء والخطوب واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح الأمور...>>.

تجمع الدراسات بأن رحلة حجّ الأسكاي محمد كانت بعدما استقرت واستقامت الأمور في مملكته التي نولى فيها الحكم بثورته على ابن سني علي، ويقول "عبد القادر زبادية" في كتابه مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1493-1591م: >> ويظهر من كل ذلك أن محمد الكبير، كان قد رأى منذ تسلمه الحكم أنه يستحقه بوراثه أو بحسب وإنما بالثورة، ولذلك فإن عليه أن يثبت جدارته بالأعمال لكي ينقاد الناس له...>>.

#### 1- أحداث ركب حج الأسكاي الحاج محمد:

ومن أحداث ركب الحج: مما جاء في كتاب الفتاش التركيز على ذكر "لقب الخليفة" حيث يقول محمود كعت: >> ...حتى اتفق جميع على عصره على أنه خليفة، ومن صرح له ذلك الشيخ السيوطي، والشيخ شهمروش الجني، والشريف الحسيني مولاي العباس أمير مكة>>. وما يمكن استخلاصه من هذا الكلام أن من بين اهتمامات وأهداف الأسكاي محمد هو الظفر بلقب الخليفة على بلاد السودان الغربي، وهذا ليتسنى له تتويج انجازاته السياسية في بلاده والمناطق المجاورة لها بتميزه بهذا اللقب عن بقية السلاطين الذين سبقوه، وهذا ما جعل المؤرخ "كعت" يكتب هذا الاعتراف الضمني والمؤكّد من قبل العلماء وأمير مكة، فذكره للعالمين الجليلين: "عبد الرحمان السيوطي" و "عبد الكريم المغيلي" دلالة على اعتراف من قبل كبار علماء العصر، أحدهما في الغرب الإسلامي وهو المغيلي، والآخر في المشرق الإسلامي وهو السيوطي، فالأول من أكبر رجال العلم والإفتاء في إفريقيا جنوب الصحراء خاصة، ويعدّ من المقربين من الأسكاي الحاج محمد حيث زار المغيلي سنغاي سنة 1498م، وحتى لا يقتصر الأمر على المغيلي تمت الإشارة إلى السيوطي عبد الرحمان وهو من أكبر علماء مصر في زمانه، بل من العلماء الذين جلس إليهم الأسكاي وسأله عن قضايا كثيرة، لكن هذه الجلسة بين الأسكاي والسيوطي تمّ توظيفها بشكل يوحي بأنّ هذا الكلام يريد صاحبه إضفاء الشرعية على مشروع ينوي القيام به في

المستقبل حيث جاء في النص: >> أما الشريف مولاي العباس فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكي الحاج محمد جالسا بحذاء الكعبة يتحدثان، فقال له الشريف مولاي العباس: يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكرهم الرسول صلّ الله عليه وسلّم ولكنك جئتنا ملكا، والملك والخلافة لا يلتقيان...>>. وهذه الفقرة من بين الفقرات التي تستقطب الباحثين خاصة هو التغير المفاجئ في الأسلوب ووجود ركافة في التعبير مما يدل على أنّ هذه الفقرات ليست من تأليف كاتب واحد، وهذا ما صعب من مهمة النقاد في الفصل والتحقيق فيها أن كاتب الفتاش في صغته النهائية هو محمود كعت الثالث، وأن الذي أراد من وراء هذا الكلام كان يدرك فحوى وحقائق عن الفتاش استغلها في التحريف، رغم أنّ تأليف الفتاش لا يعود فقط إلى محمود كعت الأول بل يتعداه إلى محمود كعت الثالث، ونجد بعض الكلمات التي تدل على أن محمود كعت أسلوبه يتضمن كلمات ركيكة تحدث نوع من الارتباك في التعبير، وعلى سبيل المثال عبارة >>...بحذاء الكعبة يتحدثان...>>، فكلية (بحذاء) تعكس نوعا ما مستوى الكاتب لهذه الفقرة، ونستبعد ذلك عن محمود كعت الأول إذا ما تتبعنا أسلوبه من حيث الفقرات التي كتبها. ومنه يبدو أن الذي أراد بكتاب الفتاش تحريفا استغل ما ذكره السعدي في ذكر مهلة ثلاثة أيام وأضاف لها كلمة "خلوة" بل أضاف لكلام السعدي لون القلنسوة (خضراء) ولون العمامة، وذكر السيف رغم أنه لم يذكر عند السعدي.

ويقول السعدي: >> ولقي في تلك الأرض المبارك الشريف العباسي فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سنغى فرضي له بذلك>>، والمتأمل في الكلام الوارد في المصدرين حول أمر مولاي العباس والشريف الحسني فعند السعدي، فتولية الأسكيا كانت من طرف الخليفة العباسي أم من طرف أمير مكة؟ وبذلك يكون حجّ الأسكيا متزامنا مع حجّ الخليفة العباسي أبو العز عبد العزيز المتوكل على الله بمصر (1479-1498م).

ونلاحظ التركيز على أمرين مهمين في رحلة الحج من حيث إظهار الأسكيا الحاج محمد بأنه تحدث مع أمير مكة، ولقائه مع عبد الرحمان السيوطي.. فالأول وضّح به أمر كيفية الفصل في قضية الملك والخلافة وركز على أن يكون الحل بعد الخلوة لمدة ثلاثة أيام.. وهذا معناه أنّ الحل وجدّه أو رآه في خلوته بل نادى به في يوم الجمعة حتى يضي عليه صبغة قدسية ومنها يستبعد أمر المناقشة حول هذا الأمر، ومنه يثبت أنّ الأسكيا محمد هو الخليفة الذي سيأتي بعده مجددا ثم ذكره بالاسم والصفات والمكان الذي سيظهر فيه، ومنه يتمكن المحرف لكتاب الفتاش بأن يجعل الكلام المضاف لا لبس عليه. وهذا ما جعل الباحثين يشرون إلى قضية تحريف الفتاش تعود إلى "أحمد لوبو" كونه هو الذي تنطبق عليه الدلائل وهو المستفيد الأول من هذا التحريف ولا شك في ذلك كونه يحتاج إلى إضفاء الشرعية على حكمه.

ثمّ يعود إلى ذكر السيوطي مرة أخرى فسأله عن الخلفاء فذكر اثنا عشرة ظهر عشر ولم يبق إلا اثنان أنت أحدهما في بلاد التكرور، بل أكثر من ذلك يستعرض له كل ما سيحدث في المستقبل من فتوحات بل حدد حتى الأماكن التي لا يستطيع فتحها مثل "بروك". وذكر هذا المكان حتى يمهد لذكر الخليفة الثاني المرتقب ظهوره بعد

الأسكيا الحاج محمد الذي لا يستطيع فتح مدينة برك وسيفتحها الخليفة الذي سيأتي بعده ومنه تظهر أهمية الخليفة الذي سيكمل الفتوحات حيث يقول: << ثم يفتح الله ذلك الموضع بيد الخليفة بعدك >>. مما لفت انتباه بعض الباحثين ومنهم "عمر بامبا" هو طلب الأسكيا الحاج محمد الاعتراف به كخليفة من طرف من هو أدنى منه.

بل أكثر من ذلك يسترسل في سرد بقية حياة الأسكيا الحاج محمد بوصفها كيف تكون في النهاية و مما جاء في كلامه أنه يصاب بالعمى، وقضية العزل من طرف أحد أبنائه بل ونفيه إلى إحدى الجزر، فهذا الكلام كله يدل على أنه يزكي فكرة التنبؤ بالغيب من جهة ومن جهة أخرى كيف أنه يذكر اسم الخليفة الذي سيأتي بعده ولم يذكر اسم الابن الذي سيعزل الأسكيا الحاج محمد ولم يذكر كذلك اسم الابن الذي سيعيده، وكيف لم يلح عليه، والمتتبع لسير الملوك نجد أنهم عادة يبطشون بمن هدفه الإطاحة بهم حتى وان كانوا من أقرب المقربين منهم، وهذا لم يحدث في عهد الاسكيا الحاج محمد، مما يدل على الذي كتب هذا الكلام عايش الأحداث التي وقعت للأسكيا أو عاش بعدها لذلك وضعت بصيغة المستقبل بشكل يوحي بأنها ستقع يقينا، وكله من أجل ترسيخ فكرة الخليفة المنتظر بعد الأسكيا.

وهناك من يبرر أن عدم ذكره لأسماء أبناء الأسكيا حتى لا تكون فتنة بين الأب والأبناء، وهذه حجة ضعيفة، كون لو كان هذا الكلام صحيح فإن الفتنة قائمة ساعة التصريح بقضية العزل، والأجدر حتى لا تكون هناك فتنة هو عدم القول بذلك نهائيا، وتأسيسا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في قضي العلم بالغيب: << لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير >>.

قضية أخرى نستنتجها من الكلام الذي يدل على التحريف هو تحديد أن الخليفة الثاني لن يكون من نسل الأسكيا الحاج محمد، ومنه يتمكن صاحب التحريف بضمان الشرعية المزعومة للخليفة المنتظر ويقطع باليقين بكلمة "لن" يكون من نسل أبناء الأسكيا ويمعن في ذكر الصفات والعلم والصلاح ويحدد اسمه "بأحمد" ويظهر في "ماسنه" ومن هنا تم استغلال الفتاش في تمرير بعض الأمور التي أضيفت لرحلة حجّ الأسكيا الحاج محمد.

والمتتبع لأسلوب "محمود كعت" من حيث الكتابة نجده يميل إلى الاختصار ويعزف عن سرد الأحداث بتوسع، فكيف به هنا يتوسع في قضية جلوسه مع "الشريف مولاي العباس ويتوسع في قضية جلوسه مع الشيخ عبد الرحمان السيوطي، بل أكثر من ذلك ينسب له بأنه هو الذي سرد عليه الأمور الغيبية التي ستحدث له على مستوى بلاد التكرور، ومن جهة أخرى لم يرد عند السيوطي -على حسب علمنا- في مؤلفاته أو رسائله أنه قدّم هذه الرؤية الغيبية للأسكيا الحاج محمد.

ومما ورد في نصوص الفتاش كثيرا ما كان يبدأ الكلام: << قال الشيخ محمود كعت... >>، << وليعلم كل من وقف على هذه القصص التي ذكرناها... >>، وفي إحدى الفقرات يشير: << قال الفقيه محمود... >>، وفي موضع آخر

في فقرتين يقول: << على لسان محمود كعت>>، ولكن في الفقرة التي تبدأ: << ولنرجع إلى ما كنا بصدد من ذكر مناقب الإمام العادل والسلطان الفاضل...>> فهنا الكاتب مباشرة شرع في كتابة الفقرة ولم يقل قال الشيخ محمود كعت أو قال الفقيه محمود وإنما مباشرة استرسل في الكلام مما يبين تغير واضح في طريق السرد والكتابة.

قضية البراءة التي أمره الشيخ "عبد الكريم المغيلي" كتابتها - بعدما سألته أسئلة تطابقت إجابتها مع إجابة الشيخ عبد الرحمان السيوطي، كما جاء في صياغ الكلام: << واتفق أقوالهما كما يقع الحافر بالحافر>> وهذا من أجل أن يعطي لكلامه أنه من عند أكبر فقهاء العصر، ومنها: أن المغيلي هو الذي أمره كتابة هذه البراءة لخليفته وأن يطلب منه الدعاء - أحمد المنصور على حسب قوله - ومما جاء فيها: << هذا كتاب أمير المؤمنين قانع الفجار والكافرين، أسكي الحاج محمد بن أبي بكر إلى وريثه المسدد، والقائم بأمره، المؤيد بالمؤمنين، أحمد المنصور.....، إعلامك وتبشيرك بأنك آخر الخلفاء وقاهر الأعداء وهادي السعداء باتفاق العلماء...>>.

هذا دليل آخر على التحريف لم يرد في كتابات المغيلي بأنه أمر الأسكيا الحاج محمد أن يكتب براءة يطلب منه الدعاء، وبشره بأنه سيكون آخر الخلفاء وقاهر الأعداء ونحن نعرف بأن الشيخ المغيلي من العلماء الذين لا يخشون في الله لومة لائم مهما كانت منزلته ورتبته، ومعروف عنه بأنه يصدع بالحق وينهى عن المنكر، فيكيف به هنا ينزلق ويقول ويقرّ بأمر غيبية تخص أحداث مصيرية تتعلق بأمر المسلمين تتمثل في ذكر وتحديد من يكون آخر الخلفاء، ويحدد بأنه وريثه المسدد. بل أكثر من ذلك يقرّ ذلك بأنه باتفاق العلماء أي علماء ذلك العصر. كونه ذكر المغيلي وشيخه عبد الرحمان الثعالبي والسيوطي.

#### خاتمة:

تمثل نصوص الرحلات مصدر مهما للدراسات التاريخية، وذلك كونها تبين أهم الجوانب التي تقفل عنها الوثائق ومن جهة أخرى لا يمكن أن نعتمد عليها كلية بل يجب إخضاعها للنقد التاريخي ومطابقتها بالمصادر والوثائق التي تزامنت مع أحداث الرحلة، وإن كانت قيمة بعض الرحلات تختلف عن بعضها كونها تعود إلى المهمة التي أقيمت من أجلها هذه الرحلة، وما مدى نجاحها، و ماهي الزوايا و الأركان التي ركزت عليها . وتحتاج بعض الرحلات إلى معرفة الجوانب التاريخية المحيطة بها وكذلك المصطلحات الأعلام التي عرفتها هذه المرحلة.

#### التهميش:

<sup>1</sup> Catherine Ansorge ;Study and Travel ; John Lewis Burkhardt's Remarkable Journey Traced Through Archives and Manuscripts in Cambridge University Library,2019, p 450-486.

<sup>2</sup> جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوسن، المجلس الأعلى لثقافة، القاهرة، سنة 2008، ص8.

<sup>3</sup> بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان...، مرجع سابق، ص17.

<sup>4</sup> حسين كفاقي: محمد علي، رؤية لحادثة القلعة، الهيئة المصرية للكتاب، 1992م، ص ص160-166. 5نفسه.

6. نفسه.

7. ينظر: جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان...، مرجع سابق، ص18.

8. الدعوة النجدية أو كما تعرف بـ الدعوة الوهابية أو الوهابية اختصارًا، مصطلح أطلق على حركة إسلامية سنية قامت في منطقة نجد وسط شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الموافق للثامن عشر الميلادي على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703 - 1792) والأمير محمد بن سعود حيث تحالفا لنشر الدعوة السلفية التي قامت على .

9. 10 عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1981، ص72.

11. 10 بشار أكرم جميل: رحلة حج السلطان منسى موسى بن أبي بكر التكروري 724هـ/1324، مجلة أدب الزايفيين، العدد 79 سنة 2019، ص ص443-462.

12. محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، دراسة وتعليق آدم بمبا مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2014، دمشق، ص92.

13. السعدي، مرجع سابق، ص72.

14. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493-1591م)، ش و ن ت، الجزائر، ص36.

15. محمود كعت، مرجع سابق، ص92.

16. محمود كعت: مرجع سابق، ص93.

17. السعدي: مرجع سابق، ص73.

18. أضف كلام ععمر بامبا حول قضي أحمد لوبو.

19. تعرف حاليا "بيوسا" في شمال نيجيريا، ينظر الفتاش، ص95.

20. الفتاش، ص99.